المحاكمة

أعجب محاكمة سمعتها أذنا التاريخ:

نادى الغلام: يا قتيبة «هكذا بلا لقب».

فجاء قتيبة، وجلس هو وكبير الكهنة أمام القاضي.

ثم قال القاضي: ما دعواك يا سمرقندي؟

قال: اجتاحنا قتيبة بجيشه، ولم يدعُنا إلى الإسلام، ويمهلنا حتى ننظر في أمرنا.

التفت القاضي إلى قتيبة، وقال: وما تقول في هذا يا قتيبة؟

قال قتيبة: الحرب خدعة، وهذا بلد عظيم، وكل البلدان من حوله كانوا يقاومون، ولم يدخلوا الإسلام، ولم يقبلوا بالجزية.

قال القاضي: يا قتيبة، هل دعوتهم إلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب؟

قال قتيبة: لا، إنما باغتناهم؛ لما ذكرت لك.

قال القاضي: أراك قد أقررت، وإذا أقر المدعى عليه، انتهت المحاكمة. يا قتيبة، ما نصر الله هذه الأمة إلا بالدين واجتناب الغدر وإقامة العدل.

ثـم قـال: قضينـا بإخـراج جميـع المسلمين مـن أرض سمرقنـد من حـكام وجيوش ورجـال وأطفال ونسـاء، وأن تترك الدكاكين والـدور، وألا يبقى في سمرقند أحد، على أنْ ينذرهم المسلمون بعد ذلك!

لم يصـدّق الكهنـة ما شاهدوه وسمعـوه، فلا شهود، ولا أدلـة، ولم تدم المحاكمـة إلا دقائق معـدودة، ولم يشعروا إلا والقاضـي والغلام وقتيبة ينصرفـون أمامهم، وبعد ساعات قليلـة سمع أهل سمرقند جلبة تعلـو، وأصواتًا ترتفع، وغبارًا يعـمّ الجنبات، ورايات تلوح خلال الغبار، فسألوا، فقيل لهم: إنّ الحكم قد نُفِّذَ، وإنّ الجيش قد انسحب، في مشهدٍ تقشعر منه جلود الذين شاهدوه، أو سمعوا به.

ومـا أن غربت شمس ذلك اليـوم إلا والكلاب تتجول في طـرق سمرقند الخالية، وصوت بكاءٍ يُسمـع في كل بيتٍ على خـروج تلك الأمـة العادلة الرحيمة من بلدهـم، ولم يتمالك الكهنـة، وأهل سمرقند أنفسهم ساعـات أكثر، حتى خرجوا أفواجًـا، وكبير الكهنـة أمامهم في اتجاه معسكـر المسلمين، وهم يرددون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فيا لله مـا أعظمها من قصة! ومـا أنصعها من صفحة من صفحات تاريخنا المشـرق! أرأيتم جيشًا يفتح مدينة، ثم يشتكـي أهل المدينة للدولة المنتصـرة، فيحكم قضاؤها على

الجيش الظافر بالخروج؟ والله لا نعلم شبهًا لهذا الموقف لأمة من الأمم.

بقي أن تعرف أن هذه الحادثة كانت في عهد الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث أرسل أهل سمرقند رسولهم إليه بعد دخول الجيش الإسلامي أراضيهم دون إنذار أو دعوة، فكتب مع رسولهم للقاضي أن احكم بينهم، فكانت هذه القصة التي تُعدّ من الأساطير.

تدبر:

جمالُ ذي الأرضِ كانُوا في الحياةِ وهُمْ
بعدَ المماتِ جمالُ الكتبِ والسِّيَرِ

obeikandl.com